الاحوال في جزيرة العرب

نظر تاريخي في تقسيمها الجغرافي والسياسي الحديث

ان كلة الباحثين في شؤون جزيرة العرب والمتتبعين لسير الحوادث في ربوعها متفقة على ان هذه الجزيرة التي لا يزال جانب منها مجهولاً لم يرتده رائد والتي عجز الفاتحون والغزاة عن تدويخها في التاريخ القديم ولا تزال ابوابها مقفلة حتى الآن في وجه التمدن الحديث تتحول الآن تحولاً ذا شأن يمدها لاستقبال حياة جديدة غير الحياة التي عرفتها قبلاً

﴿ بدء هذا التحول ﴾ ولا يخفى ان بلاد العرب كلها او هذا القسم الذي يطلق عليه اسم شبه جزيرة العرب كان جزءاً من السلطنة العثمانية التي هوت في خضام الحرب العظمى وتفككت اوصالها كما تفككت اوصال امبراطورية آل هبسبورغ في اوربا وقامت على انقاض هذه كما قامت على انقاض تلك حكومات ودول مختلفة اقتسمت تراثهما وحلت محلهما

وفي الواقع ان خضوع هذا الجانب من بلاد العرب لتركيا (والمقصود به هنا اليمن والحجاز وبلاد نجد) كان صورياً اكثر منهُ حقيقياً وذلك لان في هذه البلاد اسراً كبيرة ما برحت تتولى الحكم فيها منذ قرون طوال لم يقوَ العثمانيون على مقاومتها ولم يستطيعوا التخلص منها. فكانت في الحجاز العائلة الهاشمية التي اعتادت الدولة العثمانية ان تسند منصب الشرافة (شريف مكة) الى احد فروعها. وقد انحصر التنافس على تبوء هذا المنصب في القرون الاخيرة بين ذوي زيد ومنهم الشريف عبد المطلب والشريف غالب وقد اشتهرا في حروبهما مع الوهابيين في ثورتهم الاولى على الحجاز. وذوي عون ومنهم الشريف حسين وبهِ ختمت الشرافة التي الغيت على اثر المناداة باستقلال الحجاز في سنة ١٩١٦ وانشاء حكومة عربية في ربوعهِ

وكان لشريف مكة مقام عظيم في السلطنة العثمانية. فكان يأتي بعد الصدر الاعظم وخديوي مصر في التشريفات وكان يتصل بالباب العالي مباشرة اي انهُ لم يكن يرجع في شؤونهِ الى وزير الداخلية كبقية الولاة. وكان ذا نفوذ واسع في داخل الحجاز اذ كان الحاكم الحقيقي. اما الوالي العثماني فلم يكن يذكر بجانبهِ مع ان الاصل في اختصاص الشريف ان يكون موكلاً بالنظر في شؤون عربان بادية الحجاز وحل ما يطرأ بينهم من خلاف والعناية بامور الحج والحجاج والاشراف على كل ما يتعلق بذلك من توطيد الامن والسهر

عليهِ وتدبير الجمال اللازمة . اي ان النظر في شؤون سكان المدن الحجازية لم يكن من اختصاصهِ الاَّ ان كثيرين من الاشراف وفي جملتهم الملك حسين نفسهُ تدخلوا في الجليل والحقير من الامور وبسطوا نفوذهم على جميع المصالح والدوائر مما كان سبباً في اختلافهم مع الولاة مما لا يتسع المجال للافاضة فيهِ هنا

وفي اليمن كانت الاسرة المتوكلية التي تنحصر فيها زعامة الزيود الدينية والسياسية ولا تزال متمكنةً حتى الآن. وحسبك ان الحكم العثماني الذي استمر نحو اربعة قرون لم يتغلب عليها ولم يزحزحها. ويلقب القائمون بالامر من هذه العائلة بلقب أمير المؤمنين وهم يبايعون مبايعة شرعية يشترك فيها العلماء والقواد وكبار البلاد ويشترط في المبايَع ان يكون حائزاً على رتبة الاجتهاد في العلوم الشرعية ومتجسماً للشروط التي نصَّ الفقهاء على وجوب اجتماعها في الخليفة اي ان يكون قرشيًّا بالغاً عاقلاً يحمي الثغور ويدافع عن الذمار

وائمة هذه العائلة هم الذين قاتلوا العثمانيين في اليمن وهم الذين استنفروا الناس للجهاد وللدفاع عن كرامة الشريعة وقد ظلت الحروب متواصلة بين الفريقين زهاء قرنين ثمَّ في خلالها للامام الضحياني في القرن الثامن عشر الاستيلاء على اليمن كلها واخراج الترك منها . ويقال انهُ لما بلغ الحديدة (ميناء صنعاء) ضرب البحر بعصاهُ وقال لهُ «اشهد ايها البحر انني طهرت ارض اباءي واجدادي من الترك» ولكن هؤلاء عادوا بقوة كبيرة واستأنفوا الحرب فكانت سجالاً بينهما حتى سنة ١٩١١ فعقدت الدولة اتفاقاً مع الامام يحيى (الامام الحالي) اعترفت فيهِ بالمذهب الزيدي وقبلت ان لا يعين والي اليمن الاَّ بموافقة الامام ورجال الدولة ان يكون في المحاكم الشرعية قضاة من الزيود اي انها منحت اليمن شبه استقلال داخلي فاستقرت الامور حتى ختام الحرب العظمى والى ان جلا الترك عن هذا القطر العربي نهائيًّا وسلموهُ لاصحابهِ الشرعيين فانشأ فيهِ الامام دولة عربية مستقلة كما سيجيء بيانهُ

وتختلف الحالة في نجد عما كانت عليهِ في الحجاز واليمن لعدم وجود اسرة كبيرة تتوارث الحكم فيها كالاشراف الهاشميين الذين يسودون الحجاز من قبل الاسلام وكالاشراف المتوكلين الذين يحكمون اليمن منذ عشرة قرون . وكانت في نجد امارات وقبائل متفرقة متنازعة لا رابطة ولا اتصال بينها دأبها الغزو والغارة حتى قام المصلح الشهير الشيخ محمد بن عبد الوهاب في القرن الثاني عشر للهجرة (واليهِ ينسب الوهابيون) فنالهُ ما كان عليهِ قومهُ من التأخر والانحطاط والجهل فدعا الى الاصلاح ونبذ التقاليد والعادات الضارة والبدع والخرافات فانضمت اليهِ طائفة وقاومتهُ اخرى . ولم يعلُ

شأنهُ ولم تجمعهُ الأَّ حينما أيَّدهُ الامير سعود (امير الدرعية) فاقبل عليهِ الناس من كل صوب وكثرت شيعتهُ وازداد انصارهُ فازداد بذلك نفوذ الامير سعود. وكان من اثر ذلك الغارة التي اغارها هؤلاء على الحجاز في اوائل القرن التاسع عشر واستيلاؤهم على اكثر مدنهِ وامصارهِ وزحف الجيش المصري بقيادة محمد علي باشا لقتالهم وفتكهُ بهم وبلوغهُ عاصمتهم وقبضهُ على زعيمهم مما لا نحاول التوسع فيهِ هنا . فضعف شأن الوهابية على اثر هذه الضربة وتقلّص ظلها . وما زال الترك يعملون على اضعافها ومقاومتها حتى تم لهم القضاء على امارة الرياض بمساعدة صديقهم وحليفهم ابن الرشيد امير حائل فلجأ الامير عبد الرحمن الفيصل السعود ومعهُ آلهُ واولادهُ ومنهم عبد العزيز الملك الحالي الى الكويت واقاموا فيها ضيوفاً على اميرها ابن الصباح وذلك في اواخر القرن الماضي . ولما بلغ عبد العزيز اشدهُ اغار بعدد قليل من رجالهِ على الرياض (عاصمة بلاده القديمة) فاحتلها وطرد عامل ابن الرشيد منها ووطد اقدامهُ فيها وما زال يجدُّ و يدأب حتى تمَّ لهُ في سنة ١٩٢٠ الاستيلاء على حائل والقضاء على امارة آل الرشيد والحاقها ببلاده

﴿ اثر الحرب العظمى ﴾ اعلنت الحرب العظمى وفي بلاد العرب ثلاث قوات كبيرة لا يستهان بها : قوة الاشراف الهاشميين في الحجاز ، والمتوكلين في اليمن ، وآل السعود في نجد . فاتجهت انظار البريطانيين الذين انفردوا بالعمل في هذه الديار على اثر الحملة التي ارسلوها من الهند لغزو العراق وعلى اثر استعداد الترك في الشام للغارة على مصر — الى الاستفادة من هذه القوى فدارت مفاوضات بين ممثليهم في مصر السر هنري مكماهون والشريف حسين انتهت في سنة ١٩١٦ باعتراف الحلفاء باستقلال الحجاز استقلالاً تاماً فانضم الهاشميون وخاض غمار الحرب العظمى في صفوفهم وجنَّد الجند بقيادة انجالهِ لقتال الترك في الشام

وفي تلك السنة نفسها تم التوقيع على معاهدة اللطيف وقد اعترفت فيها انكلترا بابن السعود اميراً على نجد وملحقاتها مقابل شروط . وقد نسخت احكام هذه المعاهدة بمعاهدة جدة الجديدة فلذلك لا نتكلم عنها

ودارت في سنة ١٩١٥ مفاوضات في القاهرة بين سلطان لحج السابق والمندوب البريطاني لانضمام الامام يحيى الى الحلفاء مقابل الاعتراف باستقلال اليمن التام و بالامام يحيى ملكاً عليها سهلها وجبلها فلم يوافق الانكليز على طلب الامام فوقفت المفاوضات وظلَّ كل شيء في اليمن على حالهِ . ومما لا ريب فيهِ ان اشتراك الحجاز اشتراكاً فعليًّا في الحرب العظمى وجلاء الترك عن اليمن في نهايتها وانتصار ابن السعود على ابن الرشيد

بعد ذلك بقليل وما اعلن في خلالها من مبادئ جديدة وقطع من عهود — ان كل هذا مجمل في هذا التحول الذي يدور عليه بحثنا

﴿ الامارات العربية في نهاية الحرب ﴾ انتهت الحرب وفي بلاد العرب خمس امارات تتجاذب النفوذ : امارة الوهابية في نجد وامارة آل رشيد في حائل وحكومة الملك حسين في مكة وامارة الادريسي في صبيا (عاصمة تهامة) وحكومة الامام يحيى في صنعاء

وكان التنافس في اواخر الحرب الكبرى قد بلغ اشده بين النجديين والملك حسين الذي كان يخشى على ملكه من الدعوة الوهابية التي كانت تبث بهمة زائدة في شرق الحجاز حتى استمالت اليها معظم قبائله كما اشتد التنافس بين الملك حسين والادارسة من جهة اخرى لانه كان يعدهم دخلاء ويطمع في الاستيلاء على البلاد التي يسيطرون عليها لان سكانها من اتباع المذهب الشافعي وهو مذهب اهل الحجاز ، وبين الادارسة والامام يحيى ايضاً لانهم يستولون على الحديدة (ميناء صنعاء) وبين النجديين وامارة حائل من جهة اخرى . اي ان التنافس كان على اشده بين امراء العرب فخاف العقلاء سوء المغبة وتطيروا من نتائج هذا التطاحن فارتفعت الاصوات بالدعوة الى انشاء اتحاد عربي يضع حداً لهذه الاحن ويعيد السلام والهناء الى هذه البلاد فتصدى الملك حسين للقيام بهذا العمل العظيم لانه الملك المعترف به دولياً والزعيم الاكبر المنادي باستقلال العرب فكتب الى الامام يحيى مقترحاً عليه الدخول في الاتحاد العربي فلبى هذا الدعوة مبدئياً وارسل اليه رسولاً من كبار رجاله اسمه السيد محمد بن زباره فهبط مكة واجتمع بصاحب الامر فيها مراراً ثم انقلب الى بلاده وهو قانط من الاتفاق يائس من انشاء هذا الاتحاد لان المبادئ والقواعد التي وضعها الملك حسين لتحقيقه تجعله الآمر المطلق في هذا الاتحاد لو تم وتجعل الامراء الآخرين اتباعاً له من غير ان يعوضهم شيئاً

وتوسط المتوسطون بينه وبين ابن السعود فطلب الحسين ان يتنازل ابن السعود عن جميع البلاد التي فتحها او ضمها اليه وان يعيدها الى اصحابها الاصليين وان يعود الى ما كان عليه آباؤه الاقدمون من امراء نجد ومعنى ذلك ان يصبح تابعاً لامراء الحجاز يدفع لهم جعلاً سنوياً. ونحن في غنى عن القول ان ابن السعود رفض الاتفاق على هذه القاعدة كما رفضه الامام يحيى فباء مشروع الاتحاد العربي بالفشل التام مع ان مشروع المعاهدة التي عرضتها الحكومة البريطانية في سنة ١٩٢٣ على الملك حسين ينص على ان تتعهد هذه الحكومة ببذل مساعدتها لدى امير عسير ونجد لتحقيق فكرة الاتحاد العربي

﴿ الوحدة العربية ﴾ ولما رأى المشتغلون بالشؤون العربية ان لا امل يرجى بتحقيق فكرة الاتحاد العربي لتباين اراء الامراء واختلاف نزعاتهم ومشاربهم وعرفوا ان تمدد هذه الامارات وبقاءها على ما هي عليه يحول دون ادخال الاصلاح الى هذه الاقطار وانقاذها مما هي فيه — وجهوا همتهم الى ضم هذه الامارات وتوحيدها في ظل حكومتين احداهما في الشمال وهي حكومة نجد والثانية في الجنوب وهي حكومة صنعاء فتضع الاولى يدها على الحجاز وتسود بلاد العرب الشمالية خصوصاً وامارة حائل في قبضتها من قبل وهي تحتل جزءاً من عسير و يسطو الامام يحيى على حكومة الادارسة في تهامة فيضمها الى بلاده فيكون التقسيم الجديد للجزيرة على المنوال الآتي

نجد وحائل والحجاز والجوف والبلاد الاخرى التابعة للرياض حكومة مستقلة قائمة بنفسها . وصنعاء وتضم اليها امارة الادريسي حكومة مستقلة ايضاً على ان يعقد اتفاق سياسي بين هاتين الحكومتين في المستقبل

ومن غرائب الاتفاق انهُ بينما كانت جيوش الاخوان تغزو الحجاز لتقويض دعائم الحكومة الهاشمية كانت جيوش المتوكلين تتوغل في تهامة مستصفية المدن والديار وهكذا انهار بنيان هاتين الحكومتين في وقت واحد تقريباً وان كانت الثانية احتفظت بجزء قليل من بلادها وضمتهُ بموجب معاهدة مكة المعقودة في شهر اكتوبر سنة ١٩٢٦ تحت حماية الملك ابن السعود وان لم يكن هنالك اتفاق سابق بين صاحبي الرياض وصنعاء

ان ما كان خيالاً ووهماً في سنة ١٩٢٣ صار حقيقة ثابتة في سنة ١٩٢٦ ففي هذه السنة اندمجت امارات الجزيرة بعضها ببعض وقامت مقامها حكومتان مستقلتان كل الاستقلال فقد اختص ابن السعود بالحجاز وحده وانقسمت تهامة بينما فاخذ الامام يحيى الجانب الاكبر منها . ودخل الجانب الآخر تحت حماية ابن السعود كما قلنا آنفاً

وقد اعترفت الحكومتان الايطالية والتركية باستقلال اليمن و بالامام يحيى ملكاً لها واعترفت كل من انكلترا وروسيا وفرنسا وهولندا وتركيا بابن السعود ملكاً على الحجاز ونجد و باستقلال هذه البلاد استقلالاً تاماً . وان كان بعض هذه الحكومات لم يعترف حتى الآن باستقلال اليمن فما ذلك الاَّ لان حكومتها لم تخاطبهُ رسمياً ولم تبلغهُ ما تم طبقاً للقواعد المقررة في حقوق الدول . غير ان هذا لا يؤثر اقل تأثير في جوهر الاستقلال فاعتراف الحكومات ليس من الشروط الجوهرية في تكون الدول وقيامها

القاهرة امين سعيد